خاتمة

الجامعات والعولمة: بحثاً عن توازن جديد(*)

بعض الملاحظات عن العولمة

يؤكد مؤلفو كتاب «العولمة والجامعات» الصعوبات المرتبطة بمصطلح «العولمة» الذى يحمل تأويلات كثيرة، ويجد أصداءً وجدانية وعقلانية، لدرجة أصبح المصطلح معها مشكلة، والجامعات لابد أن يكون لها دور فى تطوير مفهوم جيد للعولمة، بمشاركة طلابها والمجتمع الذى توجد فيه. وكما يشير جون دانيال John Daniel (الفصل الأول) وكريس بروكس Chris Brooks (الفصل الثانى)، العولمة ليست شيطانا رجيما، وليست سبب كل المشكلات التى تعانيها البشرية، بحيث يتم تدميرها مهما كانت التكلفة. وفى الوقت نفسه، ليست العولمة الطريق الوحيد والمثالى نحو رخاء البشرية، بحيث يتم اقتفاء هذا الطريق عُميانا صُما بُكما. والعولمة، مع ذلك توجد جوانب سلبية يجب إصلاحها أو تغييرها. فعلى سبيل المثال، إطار العمل التحليلى يركز على الجوانب المالية، وليس بالدرجة نفسها من الاهتمام على الجوانب الثقافية والاجتماعية، مؤدية بذلك إلى تباينات بين الدول، مواطنى الدولة الواحدة. العولمة ظاهرة تثير مشكلات للبشرية، وفى الوقت نفسه تتيح الفرص للتطور، ظاهرة يجب دراستها وفهمها وإدارتها، حتى تؤدى إلى التداخل العالمى، وتحقق التقدم المطلوب لكل دول ومواطنى المعمورة.

وكما يشير جون دانيال Gohn Daniel إلى حالة الاقتصاد العالمى فى أوائل القرن العشرين المنصرم، العولمة ليست ظاهرة جديدة على المجتمعات والاقتصاد العالمى كما يعتقد البعض. وبالتالى العولمة ليست جديدة على الجامعات. وفى الواقع، كانت العولمة ـ ومازالت ـ جزءًا لا يتجزأ من الحياة الجامعية، منذ نشأة جامعة بولونيا Bologana ، وأساتذتها، ومنذ أن توافرت لهم الرعاية والحماية من الامبراطور فردريك باربروسو Friedrich Barbarosso للانتقال بحرية فى أوربا الوسطى.

(*) تأليف فرانسوا تافناس Francois Tavenas

وكذلك يشير جون دانيال John Daniel إلى البروفسيور إرازمس Erasmus الذى كان نشيطا فى كل الجامعات الكبيرة والشهيرة بأوربا فى عصره. وفى الوقت نفسه يشير دانيال إلى الطلاب الذين أنشأوا جامعة أكسفورد بعد طردهم من جامعة السوربون Sorbonne.. كل ما فى الأمر أنه لابد من تذكر الحراك الدولى للباحثين، ودور المجتمعات الدولية فى كل نظم المعرفة، ودور الصحافة الأكاديمية الدولية، والمؤتمرات الدولية فى نشر نتائج البحوث. كل ذلك يثبت بالدليل والبرهان أن ممارسة العولمة تأسست فى المجتمعات الأكاديمية.

ومع ذلك، فإن الجديد هو المدى الذى انتشرت خلاله ظاهرة العولمة؛ أى التداخل المتنامى لكل المجتمعات والقطاعات، والسرعة المتزايدة لحركة الأفكار والبضائع والأفراد وظهور ظاهرة القرارات المحلية التى لها تأثير عالمى، والتعقيد والشك المتزايد للعالم وميكانيزماته، بالإضافة إلى تأثير الإنترنت. كل ذلك يحتاج إلى فهم نتائج التطور حتى يمكن التوافق أو التكيف معه، وحتى يمكن السيطرة عليه، وتوجيهه فى اتجاه يؤدى إلى التقدم لكل الإنسانية.

واتجاه المنظومة الدولية نحو العولمة يثير نوعين من المشكلات للتعليم العالى: مشكلات ترتبط بالتدريس والبحث، أى بكيفية تكييف البرامج التدريسية والمجالات البحثية، ومشكلات مرتبطة بالتنظيم والسياسات والاستراتيجيات الخاصة بالتعليم العالى.

القضايا المرتبطة بالبرامج البحثية والتدريبية

هناك قضايا كثيرة يثيرها المؤلفون. ومع ذلك، سيتم التركيز على ثلاث قضايا فقط:

• **أولا:** المؤسسات التعليمية أمامها مهمة مزدوجة لتطوير ونقل المعرفة والقيم العالمية، وفى الوقت نفسه، المساهمة فى التنمية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات المحلية التى تخدمها وتدعمها. والتحدى الذى يواجه أى جامعة يكمن فى كيفية تحقيق توازن صحيح بين المهمتين المتناقضتين أحيانا. وجسامة التحدى تكمن فى كيفية تناوله فى سياق معرفى ذات أهمية كبيرة للتنمية الاقتصادية، وتعتبره الحكومات واللاعبون الاجتماعيون وسيلة ضمان المنافسة لأى دولة فى عالم معولم،

والجامعات بذلك واقعة تحت ضغوط متناقضة.. فمن ناحية العرف الداخلى الخاص بالمذهب الاشتراكى العلمى Scientific Communism، يشجع الجامعات على تطوير حرية الحركة للأفكار والأفراد عالميا. ومن ناحية أخرى، الحكومات والمجتمع، بحكم تحملها أعباء التمويل، تنتظر عائداً لهذا الاستثمار فى شكل إسهامات فى التنمية الاقتصادية المحلية. وفى السنوات المقبلة، تحقيق التوازن بين الأعباء العالمية والمحلية سوف يكون مآله صعبًا للغاية.

• **ثانيا**: عالم التعليم العالى مازال واقعا تحت طغيان النظم الرئيسة والفرعية العلمية، والمصطلح الذى استخدمه ميشيل جبونز Michael Gibbons (الفصل السادس) وأطلق عليه «أسلوب واحد» Mode One يساعد فى ضبط البنيات الداخلية للكليات والأقسام، وانتشار المعرفة (مجتمعات متعلمة، صحافة أكاديمية)، وممارسات التقدير والحكم (معايير الترقية، تنوير الأساتذة، الجوائز والتمايزات الأكاديمية)، وبرامج التدريس والبحث، ومع ذلك.. فإن المشكلات التى تواجه البشرية معقدة ومتداخلة. وكما يشير جبونز Gibbons وآخرون، هناك حاجة للتوافق مع «أسلوب اثنين» Mode two لإنتاج المعرفة، عن طريق إدخال بُعد متداخل النظم إلى الممارسات الآتية.

هذه الممارسات تشمل:

- البرامج الجديدة والبنيات ،المرنة والمتداخلة النظم والمتمركزة حول المشكلة (بنية القالب matrix المرن الذى اقترحها هانزفان جنكل Hans Van Ginkel فى الفصل الرابع تتوافق مع مثل هذا الأسلوب «اثنين»).
- البرامج الجديدة والأنشطة التى تتضمنها لإعطاء الطلاب فرصا أكبر للدخول فى أبعاد متداخلة النظم، وتدريبا يجعلهم فى توافق مع متطلبات العالم المعقد الذى يعيشون فيه.

• **ثالثا**: مهمة التعليم العالى تدريب القادة واللاعبين الاجتماعيين.. هؤلاء القادة واللاعبون الاجتماعيون مطالبون بالتعامل مع العالم المعقد، والمشكلات التى يثيرها، وهذا يتطلب فى الوقت ذاته تكييف البرامج بحيث تتواءم مع الإعداد الجيد لهؤلاء

الأفراد بما يمكنهم من مسايرة تحديات العولمة، ويجب أن تسعى البرامج إلى تطوير قدرات القادة واللاعبين الاجتماعيين التالية:

- تعلم كيفية التعلم.
- فهم القضايا العالمية.
- التفاعل مع الجماعات الاجتماعية المختلفة.
- اكتساب الفهم والقدرة على العمل فى البيئات الثقافية المختلفة.
- الاكتساب الفورى للقيم العالمية والمعرفة المهنية والوظيفية ذات الجودة العالية.

القضايا المرتبطة بالمؤسسات وبنياتها وسياساتها

العولمة لا تؤثر فى كل الجامعات فحسب، لكن تأثيرها بارز أيضا فى مجالات وأنواع كثيرة، مثل البنيات والإجراءات والسياسات المؤسسية.

وهناك ست نقاط بارزة، هى:

• **أولا:** الإنترنت ييسر الوصول إلى المعلومات والأدوار التقليدية لأستاذ الجامعة الذى كان فى يوم ما مصدر المعرفة، وكانت الجامعة المكان الوحيد لنقل هذه المعرفة، تأثرت إلى حد كبير بظهور تقانة المعلومات والإنترنت. ومن الصعب للغاية مقاومة التطور التقنى بل العكس، لابد من السعى لاستيعاب عالم الإنترنت والتوافق معه بطرق عديدة.

- إعادة تأكيد دور أستاذ الجامعة كموجه ومستشار ومرشد للطلاب فى التدريس والبحث وتحليل ونقد وتكامل المعلومات المتاحة على شبكة الإنترنت وغيرها.
- هذا الدور حيوى ويحتاج إلى تطوير.
- استخدام الإنترنت لنشر جودة المادة الأكاديمية بحرية يقتضى الوقوف على مدى مناسبة هذا الأسلوب للنظام العالمى الخاص بالتقييم الجماعى.
- استخدام الإنترنت وسيلة لزيادة التعاون بين الجامعات، وتيسير الشراكة البحثية الجديدة، لصالح جامعات دول الجنوب خاصة.

• **ثانيا**: العولمة وإنتاج المعرفة المتزايد يتطلب من الجامعات زيادة برامج التعليم المستمر. فالتعليم المستمر يجب أن يكون محوراً أساسيا فى رسالة الجامعة. والإنترنت يوفر أداة فاعلة لنشر معرفة حديثة تفيد الطلاب والخريجين فى التعامل مع التغيرات والتحديات المهنية. وهذا يتطلب الاستفادة من الانترنت للاضطلاع بالمسئوليات على أكمل وجه.

والتعليم المستمر مجال تجارى تنافسى أمام اللاعبين الجدد فى التعليم العالمى، بما فيها اللاعبون الاجتماعيون الجدد على المشاركة فى عملية التمويل (الطلاب، الحكومات، المؤسسات التجارية). ولابد من الاهتمام بوسائل تحقيق الجودة فى التعليم العالى، وبالطرق التى تيسر لكل راغب فى التعليم العالى الحصول عليه. ولابد من الموضوعية عند مناقشة هذه القضايا.

• **خامسا**: أضرار الأساليب التنافسية للعلاقات بين الجامعات أكثر من فوائدها، حال تقييمها فى ضوء القيم التقليدية لحرية انتقال الأفكار والأفراد، وهناك مثل خاص بالمنافسة على الطلاب والأساتذة والمدراء، وكيف ساهم فى هجرة (نزيف) العقول البشرية وتوسعة الفجوة بين دول الشمال والجنوب. الأمر الذى زاد الموقف سوءاً. ويوضح جان كيرى Jan Currie (الفصل الثانى عشر) إلى أى مدى يمكن للأساليب التنافسية والتجارية إحداث نتائج موضع تساؤل، مما يسبب صعوبات خطيرة للجامعات التى تستخدم مثل هذه الأساليب، وهناك نجاحات بارزة كتلك التى حققتها جامعة فونكس Phoenix (الفصل الثالث عشر)، وفى الوقت نفسه، هناك إخفاقات كثيرة.

وإذا أريد حقا وقاية القيم التقليدية للتعليم العالى؛ أى تحقيق الانتقال الحر للأفكار والأفراد، والإسهام فى إنتاج معرفة عالمية لصالح البشرية جمعاء، فلابد من رسم خريطة Chart العمل على أساس هذه القيم، أى على أساليب تعاونية، وليست تنافسية.

• **سادسا**: كل ذلك يؤدى إلى القضية الرئيسة للتعليم العالى واتفاقيات الجاتز؛ فالتعليم العالى ليس سلعة تحتاج إلى تنظيم حسب ميكانيزمات السوق، شأنه شأن

تجارة الأخشاب، أو البترول، أو الطائرات، وليس معنى ذلك عزل التعليم العالى عن كل النظم الخاصة بالتجارة العالمية.. كل ما فى الأمر أن يكون التعليم العالى محكوماً بقواعده الخاصة به.

ويطالب ريكاردو باترلاRiccardo Petrella (الفصل الثامن) بمواجهة الجوانب الأساسية للعولمة كما تمارس اليوم، ولابد من إدراك المفاوضات بين الحكومات دون مشاركة الجامعات، ولابد أن تقوم المؤسسات الأكاديمية بدورها فى هذا الاتجاه بحيث تكون مواقفها معروفة لممثلى الحكومة لتجنب أخطاء الماضى والحاضر.

وتحقيق ذلك يتطلب الوقوف على كل جوانب القضية. ولابد من تكثيف الجهود، خاصة بعد الإعلان المشترك فى سبتمبر ٢٠٠١ بين اتحاد الجامعات والكليات الكندية، ومجلس التعليم الأمريكى، واتحاد الجامعات الأوربية، ومجلس التعليم العالى للاعتماد (انظر الملحق).

ومقولة باسكال Pascal «الطبيعة فى رعب» تصدق على المجتمع الدولى. فلايكفى القول بأن البشرية ليست فى حاجة للجاتز. فلابد من توضيح كيفية تنظيم البعد الدولى للتعليم العالى. ويمكن أن تقوم اليونسكو بدورها أيضا عن طريق المساعدة فى إقامة بُعد دولى على مبادئ الانتقال الحر للأفراد والأفكار، والمساهمة فى إنتاج معرفة عالمية، والمشاركة فى عملية تثقيف الشعوب، وفى التنمية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات التى تخدمها الجامعات.

ويقول الرئيس السابق لمجلس مديرى جامعة لافال الفرنسية Universite` laval إنه سيكون سعيداً إذا عاش فى قرية عالمية، لكن يتساءل عن جدار المدينة. ومعنى هذا أنه من الأفضل تكوين مجلس للبلدية Omuncipal، بدلاً من وجود جمعية أكاديمية دولية «حارس» على حد تعبير هانز فان جنكل Hans van Ginkel. ويتناول القضايا الرئيسة لجودة التعليم العالى، ويعترف بالدبلومة، ويقى النظم القومية الثقافية والاجتماعية للتعليم العالى، ويطور التعاون الدولى بين الجامعات.